الأدب في العصر الأيوبي
(567 هـ - 648هـ)

1- موقف الأيوبيين من الأدب:

السلطة في مصر في عهد الأيوبيين لم تكن في أيدي أجناس عربية؛ لأن الأيوبيين من الأكراد؛ ولذلك غمط بعض الشعراء الأيوبيين حقهم، واتهم الحكام منهم بأنهم لا يفهمون الشعر العربي، ولا يستطيعون أن يتذوقوه، وأنهم لا يقبلون عليه؛ لأن سليقتهم بعيدة - كل البعد - عن السليقة العربية، وقد أدى ذلك إلى ضياع الشعر آنذاك، ومن هؤلاء الذين وجهوا تلك التهم إلى الأيوبيين شاعر يدعى المهذب بن أسعد الذي يقول:

أَأَمدحُ الـتركَ أَبْغِـي الفَـضْلَ عِنـدَهُمُ والـشِّعرُ مَـا زالَ عِنْدَ الـتُّركِ مَتْرُوكَـا[1]

ويقصد هذا الشاعر بالترك – هنا – الأكراد الذين ينتمي إليهم الأيوبيون، ولكن هذا القول ينبغي ألا نأخذه قضية مسلمًا بها؛ فربما كان الشاعر يتحدث عن تجربة شخصية له، والحكم العام الذي يعطيه في الشطر الثاني قائم على حالة فردية.

والحق أننا حينما نتتبع الأيوبيين وسياستهم الفنية تتوفر لدينا الأدلة على أن هذا الشاعر قد ظلمهم بإطلاق حكمه هذا؛ لأن كثيرًا من الأيوبيين تلقوا ثقافة عربية على شيء من الاتساع، وقرءوا سير الحكام العرب، وحاولوا أن يقلدوهم وخاصة في موقفهم من الشعر؛ بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فربط بين نسبه ونسب الأمويين،

(1) الروضتين، أبو شامة المقدسي، ج 1، ص 240، ط 1، دار الجيل، بيروت، وط وادي النيل، سنة 1287هـ.

واخترع له نسبًا يصله بهؤلاء الخلفاء مثل المعز الأيوبي الذي ادعى أنه قرشي النسب من بني أمية [1].

نجد صلاح الدين الأيوبي أول سلاطينهم يرفع من مكانة الأدب، ويرى أن ملكه إنما قام عليه، فيقول في ملأ من الناس: "لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيوفكم، ولكني فتحتها بقلم القاضي الفاضل"[2]. ومعروف أن القاضي الفاضل كان أعظم كتاب صلاح الدين الأيوبي وأكثرهم قربًا إليه.

ولدينا من الأخبار ما يدل على أن صلاح الدين كان يحب الشعر ويستحسن أشياء منه، فيرددها ويتمثل بها في مواقفه المتعددة؛ فلقد قيل إنه كثيرًا ما كان ينشد قول أبي منصور الحميري:

وزَارَنِي طَيْفُ مَنْ أهْوَى عَلَى حَذَرٍ ... مِنَ الوُشَاةِ وطَيْفُ الصُّبحِ قَدْ هَتَفَا

فكِدْتُ أُوقِظُ مَنْ حَوْلِي بهِ فَرَحًا ... وكادَ يَهْتِكُ سِترَ الحُبِّ بِي شَغَفَا

ثُم انْتَبَهْتُ وآمالي تُخَيلُ لِي ... نَيْلَ المُنَى فاسْتَحالَتْ غِبْطَتِي أَسَفَا[3]

كما كان يعجب بقول ابن المنجم في خضاب الشيب:

ومَا خَضَبَ النَّاسُ البياضَ لِقُبْحِه ... وأقْبَحُ مِنْهُ حِينَ يَظْهَرُ نَاصِلُه

ولكِنَّهُ مَاتَ الشَّبَابُ فسُوِّدَتْ ... عَلَى الرَّسْمِ مِنْ حُزْنٍ عليهِ مَنَازِلُه[4]

---

(1) الأعلام، الزركلي، ج 1، ص 316، ط دار العلم للملايين، سنة 1986.

(2) شذرات الذهب، ج4، ص 327.

(3) وفيات الأعيان، ج 3، ص 513، ط دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط أولى، سنة 1997.

(4) وفيات الأعيان، ج 3، ص 513. وكان الملك الكامل يردد في مرض موته هذا البيت:

يَا خليليَّ خَبِّرانِي بِصِدْقٍ ... كيفَ طَعْمُ الكَرَى إنِّي نَسِيتُه

وكان يضمِّن رسائله شيئًا من الشعر، ومن ذلك أنه كتب في أول ملكه لمصر إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين.

أَيُّهَـــا الغَـــائِبونَ عنـــا وإنْ كُنْــــتُــم لِقَلْبِـــي بِـــذِكْرِكُم جِيرَانَـــا
إنَّنـــي مُـــذْ فقـــدتُكُم لأَراكُـــمْ بعيـــونِ الـضَّمِيرِ عِنْـدي عَيانَـا [1]

ومن ذلك أيضًا أنه كتب إلى بعض أصدقائه رسالة تبشر بطيب أنبائه، يضمنها هذا البيت:

مَـا كُنْـتُ بـالمَنْظُورِ أَقْنَـعُ مِـنْكُمُ ولَقَـدْ رَضِـيتُ اليـومَ بالمَسْمُوعِ [2]

وكان صلاح الدين يعجب بديوان أسامة بن منقذ من الشعراء المعاصرين له؛ بل كان شغوفًا به [3]، ولم يكن منبت الصلة بالشعراء القدامى، فلقد قيل إنه كان يحفظ ديوان الحماسة.

وإذا ما تركنا صلاح الدين وجدنا بقية الأيوبيين يماثلونه في نظرته إلى الشعر؛ بل نجد من الأحداث التي تقع منهم ما يذكرنا بأحداث عربية قديمة وقعت لعرب خلص، ويذكر ابن الأثير أن منهم من كان يتمثل في بعض المواقف بأمراء أو حكام سابقين كان للشعر عليهم سلطان[4]. ومن ذلك أن عز الدين فروخ شاه بن شاهن شاه بن أيوب أبلى أعظم البلاء تحت قيادة صلاح الدين في إحدى المعارك التي وقعت قرب بانياس في سنة 575هـ، وكان في هذا البلاء متأثرًا بأبيات من الشعر، حكى هو عن نفسه فقال: "ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما:

فَـإنْ تَكُـنِ الـدَّوْلاَتُ قِـسْمًا فإنَّهـا لِمَـنْ يَـرِدُ المَـوْتَ الـزُّؤَامَ تَـدَولُ

(1) وفيات الأعيان، ج 3، ص 513.
(2) الروضتين، ج 1، ص 179.
(3) الروضتين، ج 1، ص 247.
(4) الكامل، ابن الأثير، ج 9، ص 147، ط الاستقامة – القاهرة.

لِمَنْ هَوَّنَ الدُّنْيَا عَلَى النَّفْسِ سَاعةً ... ولِلْبِيضِ في هَامِ الكُماةِ صَلِيلُ

فهان الموت في عيني فألقيت نفسي إليه" (1).

وهناك أخبار أخرى تدل – دلالة واضحة – على أن الشعر العربي لم يقتصر تأثيره على أوقات الحروب، التي تجيش فيها النفوس بالمشاعر الفياضة، وتدل على أن الأيوبيين كانوا يعرفون له هذا التأثير؛ بل امتد سلطان الشعر على النفوس حتى في أوقات السلم؛ إذ يقال – مثلا – إن سيف الإسلام طغتكين أخا صلاح الدين، كان يتمنى أن يوليه أخوه صلاح الدين اليمن بعد موت واليها أخيهما شمس الدين، ولم يستطع أن يذكر ذلك صراحة لصلاح الدين، فأوعز إلى ابن سعدان الحلبي أن ينظم قصيدة يوحي فيها إلى صلاح الدين بما يحقق له هذه الرغبة، ففعل الرجل، وكان مما قاله في قصيدته:

جَرِّدْ لَهَا السَّيْفَ الصَّقِيلَ فِتْنَةً ... فالسَّيْفُ لا يُذْخَرُ إلَّا لِلْفِتَنْ

شُدَّ بِهِ أَزْرَ العُلَا فإنَّهُ ... نِعْمَ فَتًى مَنْ شَرَّعَ الجُودَ ومَنْ

القَائِلُ المُسْمعُ في مَقَالِهِ ... والصَّادِقُ النَّدْبُ الأَمِينُ المُؤْتَمَنْ

قَدْ فَسَدَ المُلْكَ وَقَدْ طَالَ العِدَى ... واقْتَسَمُوا بَعْدَكَ أَمْوالَ اليَمَنْ

فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الإسلام في المسير إلى اليمن (2)، ولدينا من الأدلة ما يبين أن حكام هذه الفترة قد استخدموا الشعر في حث الناس على المشاركة في قتال الصليبيين، وعلى الاستبسال في المواقع المختلفة التي اشتبكوا فيها، وقد قيل ذلك عن صلاح الدين وغيره من سلاطين تلك الدولة.

وقد فطن الشعراء إلى هذا الأمر، فأخذوا – بدورهم – لا يحثون الناس عامة على الجهاد والقتال؛ بل كانوا يحثون السلاطين والأمراء على محق الصليبيين واستئصال

(1) الكامل، ج 11، ص 206. وجاء في ديوان المتنبي: "لمن ورد الموت".
تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ج 3، ص 110، ط دار الفكر بدون تاريخ.
(2) الروضتين، ج 2، ص 26.

شأفتهم، ويهتفون بعد ذلك بتلك الانتصارات التي يحققها هؤلاء الأيوبيون، وذلك كما نقرأ في قول الحسن الجويني:

جُنْـدُ الـسَّمَاءِ لِهَـذَا المَلْـكِ أعْـوَانُ ... مَـنْ شَـكَّ فِيـهِ فهـذَا الفَـتْحُ بُرْهَـانُ

هَـذِي الفُتُـوحُ فُتُـوحُ الأَنْبِيَـاءِ وَمَـا ... لِهَـا سِـوَى الـشُّكْرِ بالأَفْعَـالِ أَثْـمَانُ

تِـسْعُونَ عَامًـا بِـلادُ اللَّهِ تَـصْرُخُ والْـ ... إِسْـــلاَمُ أَنْـــصَارُه صُـــمٌ وعُمْيَـــانُ

للنَـاصِرِ ادُخِـرَتْ هَـذِي الفُتـوحُ وَمَـا ... سَـمَتْ لهَـا هِمَـمُ الأَمْـلاكِ مُـذْ كـانُوا

فَـــاللَّهُ يُبْقِيـــكَ للإِسْـــلاَمِ تَحْرُسُـــهُ ... مِـنْ أَنْ يُـضَامَ ويُلْفَـى وَهْـو حَـيْرَانُ(1)

ومن ذلك أيضًا قول الشريف النسابة المصري:

أَتُـــرَى مَنَامًـــا مَـــا بِعَيْنِـــي أَبْـــصِرُ ... القُـــدْسُ يُفْـــتَحُ والفِرنْجَـــةُ تُكْـــسَرُ

وَمَلِـــيكُهُمْ في القَيْــدِ مَــصْفُودٌ وَلَمْ ... يُــرَ قَبْــلَ ذَاكَ لَهُــمْ مَلِيــكٌ يُــؤْسَرُ

قَـدْ جَـاءَ نَـصْرُ اللَّهِ والفَـتْحُ الَّـذي ... وُعِـدَ الرَّسُـولُ فَـسَبِّحُوا واسْـتَغْفِرُوا

فُـتِحَ الـشاَم وطُهِّـرَ القُـدْسُ الَّـذِي ... هُـوَ في القِيامَـةِ للأنَـامِ المَحْـشَرُ(2)

وهكذا يتسابق الشعراء، ويستمع السلاطين والأمراء معجبين ومشجعين، والحق أنهم لم يكونوا مشجعين على النظم في وقت الحرب؛ بل شجعوا عليه في وقت السلم، وأقبلوا على الأدب وتذوقوه، وأقبلوا على الأدباء يجزلون لهم العطاء، ويغدقون عليهم من الهبات ما يذكرنا بما كان يصنعه الحكام العرب القدماء، ومن ذلك أن أحد الشعراء مدح صلاح الدين بقوله:

---

(1) الروضتين، ج 2، ص 104، 105.

(2) وفيات الأعيان، ج 3، ص 515.

اللَّهُ أَكْـبَرُ جَـاءَ القَـوْسَ بَارِيهَـا ... ورَامَ أَسْـهُمَ دِيـنِ اللَّهِ رَامِيهَـا
فَكَمْ لِمِصْر عَلَى الأَمْصَارِ مِنْ شَرَفٍ ... باليُوسُـفَيْنِ فَهَـلْ أَرَضٌ تُـدَانِيهَا؟
قُـل لِلْمُلـوكِ تُخَلِّي عَـنْ مَمَالِكهَـا ... فَقَـدْ أَتَـى آخِـذُ الـدُّنيَا ومُعْطِيهَـا

فلما أتم قصيدته أجازه صلاح الدين بألف دينار [1].

وأجاز أيضًا الشاعر سعادة الأعمى على قصيدة له بألف دينار، ومدحه الشاعر المهذب بن أسعد، الذي قال في الأكراد البيت الذي أتينا به في أول الحديث عن الأيوبيين، فأسرع صلاح الدين إلى إجازته وجمع له بين الخلعة والضيعة" [2]؛ وذلك إبطالًا لزعم هذا الشاعر.

ومن خلال هذه الأخبار نستطيع أن نقول: إن الشعر العربي في عهد الأيوبيين لم يجد الأبواب موصدة أمامه؛ بل كانت مفتحة على مصراعيها.

وتدلنا الدلائل على أن الأيوبيين قد أقبلوا على الأدب وتذوقوه وشجعوا عليه؛ فلقد تلقى معظمهم ثقافة عربية على شيء كبير من الاتساع، قربت بينهم وبين الحس والذوق العربي، وهيأت لهم مزاجًا قريبًا من المزاج العربي؛ بل إن بعضهم تعمق في الثقافة العربية مثل الملك الأفضل علي بن يوسف صلاح الدين، الذي قيل عنه "كان عنده علم وأدب"، وكان يكتب خطًّا حسنًا ... وله شعر"[3]. ومن شعره قوله الذي يشكو فيه من عمه العادل وأخيه العزيز، لما أخذا منه دمشق، يشكو للملك الناصر:

مَـوْلاَيَ إنَّ أَبَـا بَكْـر وصَـاحِبَهُ ... عُثْمانَ قَدْ غَصَبَا بالسَّيْفِ حَقَّ عَلِي

(1) انظر: الروضتين، ج 1، ص 240؛ وفيات الأعيان، ج 3، ص 515.

(2) وكان مما قاله هذا الشاعر المهذب بن أسعد في مدح صلاح الدين قصيدة مطلعها:

مـا نَـام بَعْـدَ البَـيْنِ يَـسْتَحْلِي الكَـرَى ... إلَّا ليطْرِقَـهُ الخَيَـالُ إذَا سَرَى

انظر: الروضتين، ج 1، ص 240.

(3) وفيات الأعيان، ج 2، ص 200.

وَهْــو الــذي كَــانَ قَــدْ ولّاهُ والِــدُهُ　　عَلـيْهِمَا فاسْـتَقامَ الأمْـرُ حِـينَ وَلِي [1]

فأجاب الملك الناصر:

فأبْـشِرْ فـإنَّ غَـدًا عَليْـهِ حِـسَابُهُمْ　　واصْـبِرْ فنَـاصِرُكَ الإِمَـامُ النَّـاصِرُ[2]

وهناك نماذج أخرى من شعره متناثرة في الكتب التي ترجمت للأفضل، وما زالت باقية إلى اليوم.

وقيل عن أخيه غازي: "له شعر حسن"، وكان محبًّا للعلماء مجيزًا للشعراء [3]، ومثل ذلك القول أطلق على الملك الكامل[4]، وعلى فروخ شاه بن شاهنشاه، وعلى إسماعيل بن طغتكين، والمعظم توران شاه بن الصالح أيوب، وعز الدين فروخ شاه، الذي كان عالمًا متفننًا، كثير الأدب، مطبوع النظم والنثر [5].

ومن شعر عز الدين فروخ شاه قوله:

أَنَـــا في أَسْرِ الــــسَّقَامِ　　مِـــنْ هَـــوَى هَـــذَا الغُـــلَامِ
رشـــأ تَرشـــقُ عَيْنَـــا　　هُ فُـــؤادِي بِـــسِهامِ
ذُقْـــتُ مِنْـــهُ الـــشَّهْدَ في الثَّـــ　　ـــلجِ المُـــصَفَّى في المُـــدَامِ[6]

---

(1) وفيات الأعيان، ج 2، ص 200.

(2) وفيات الأعيان، ج 2، ص 200.

(3) وفيات الأعيان، ج 2، ص 243.

(4) ومن شعر الملك الكامل قوله في رسالة بعث بها إلى أخيه الملك الأشرف موسى:

يَـا مُـسْعِدي إنْ كنـتَ حقًّـا مُـسعِفي　　فـانهضْ بغـيرِ تلبـث وتوقـفِ
إن تـأتِ عبـدَكَ عـن قليـلٍ تَلْقَـهُ　　مـا بـينَ كـلِّ مهنـدٍ ومثقـفِ

الخطط، ج 4، ص 212.

(5) الروضتين، ج 2، ص 33.

(6) الروضتين، ج 2، ص 34.

ويوغل بعض الأمراء الأيوبيين في الثقافة العربية والمزاج العربي أكثر مما فعل إخوتهم هؤلاء، فلا يصدرون البيت بعد البيت أو القطعة بعد القطعة؛ بل يصدرون من الشعر ما ألف ديوانًا كاملًا.

ومن أول من نسبت له دواوين الأمير تاج الملوك بوري بن أيوب، الذي قيل عنه إنه شاعر بليغ، له ديوان من الشعر، وقد ذكر حاجي خليفة - صاحب كشف الظنون - يصف هذا الديوان: "فيه الغث والثمين". ومن شعره قوله:

خُلِقَ الهَوَى داءً بغَيْرِ دَوَاءِ   فَعَلِيلُهُ أبدًا بِغَيرِ شِفَاءِ
ولأَجْلِ ذَاكَ أَنَا الشَّقِيُّ بِمَنْ لَهُ   قَدْ جَدَّ لِي وَجْدي وعزْ عَزَائِي
يَهْوَى سِوَايَ ولَسْتُ أَهْوَى غَيْرَهُ   والنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي الأَهْوَاءِ
قَمرٌ، رَجَوْتُ مِنَ الزَّمَانِ وِصَالَهُ   يَوْمًا فأَخْلَفَ بالصُّدودِ رَجَائِي
وكَذاكَ طَبعُ الدَّهْرِ حِينَ عَرَفْتُه   يِمْضِي عَلَى السَّرَاءِ والضَّراءِ
والعَيْشُ بَيْنَ حَلَاوةٍ ومَرَارةٍ   والنَّاسُ بَيْن سَعَادةٍ وشَقَاءِ[1]

وممن نسبت لهم دواوين الملك المنصور محمد بن عبد الملك المظفر تقي الدين صاحب حماه [2].

وممن وصلت إلينا دواوينهم من الأيوبيين الملك المعز الأيوبي، والناصر داود بن المعظم عيسى بن الملك العادل، ولكن ما زال ديوان كل منهما مخطوطًا حتى اليوم لم يحقق بعد.

وممن وصلت إلينا دواوينهم الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه، الذي يعد أشعر بني أيوب، وديوانه أضخم دواوينهم على الإطلاق؛ فهو

(1) ديوان تاج الملوك الأيوبي، ص 100، تحقيق أ.د. محمد عبد الحميد سالم، ط هجر، سنة 1988.
(2) انظر: بدائع البَدَائِه، ابن ظافر الأزدي، ص 324، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الأنجلو، سنة 1970.

يحتوي على ما يقرب من أربعة آلاف ومائتين وخمسين بيتًا، ويتميز شعره بالقوة وفخامة الألفاظ، ومن ينظر في شعر بهرام يجد أن هذا الشاعر - في أحيان كثيرة - كأنه كان ينحت من جبال اللغة وجلاميدها الصلدة، وكأنه كان يعمد إلى ذلك عمدًا، فشعره حافل بالغريب، مملوء بالألفاظ التي تحتاج إلى معاجم اللغة"[1]، على الرغم أنه "ليس عربي الأصل، ولم يعش في البادية، كما أنه كان ملكًا، والملوك عندهم رقة الألفاظ وسهولة العبارة" [2]، وكأنما أراد الشاعر من وراء ذلك أن يثبت أنه – رغم الأصل غير العربي، ورغم أنه ملك - قادر على امتلاك ناصية اللغة، ويريد أن يثبت أن الأيوبيين يستطيعون أن يفهموا اللغة العربية، ويتذوقوا جمالها، ويتعرفوا على أسرارها كأصحابها تمامًا، فيفند بذلك مقولة من ادعى عليهم عدم فهمهم اللغة العربية، وعدم تشجيعهم الأدباء والشعراء [3].

ومن شعر بهرام شاه قوله:

أَرِقْتُ مِن بَارِقٍ بالجِزْعِ لَمَّاع ... بَدَا فَهَيَّجَ أَشْواقِي وأَوْجَاعِي

أهدَى الحنينَ وقدْ لاحتْ لَوَامِعُهُ ... لمُغْرَمٍ مِنْ فِراقِ الحِي مرْتَاعِ

مُصَاحبُ البينِ مَا تَنْفَكُّ أينُقُه ... مُغذَّةً بينَ أجْرَاعٍ وأجْزَاعِ

تَعافُ أَنْ تَرِدَ الماءَ الجِمَامَ وأَنْ ... تَرْعَى الجَمِيمَ عَلَى خِصْبٍ وأمْرَاعِ

فِي كلِّ هَجْلٍ بعيدِ القَعْرِ تَقْطَعُهُ ... سَوَاهِمًا بينَ إيجَافٍ وإيضَاعِ

تَهْوِي بكلِّ ربيطِ الجَأْشِ مُدَّرِعٍ ... مَاضِي العزيمةِ حَامِي العِرْضِ شَرَّاعِ

يَحْمِي السَّوامَ إذَا الأذْوادُ أهمَلَهَا ... رُعَاتُها وأَنَاخُوهَا بِجَعْجَاعِ[4]

(1) ديوان بهرام شاه الأيوبي، ص 7، تحقيق د. غريب محمد علي، ط1، الهيئة المصرية العامة، سنة 1991م.
(2) ديوان بهرام شاه الأيوبي، ص 7.
(3) ديوان بهرام شاه الأيوبي، ص 8.
(4) ديوان بهرام شاه الأيوبي، ص 29، 30.

ومعنى ذلك أن الأيوبيين قد أقبلوا على الثقافة العربية، وعلى الفن العربي الخالص – أعني الشعر – وحاولوا أن يحاكوا العرب فيه، وأن يشاركوا في إنتاجه.

والحق أن هذا الكلام ينطبق على أقدم من نعرف من الأيوبيين: صلاح الدين وأخيه العادل، وهو أكثر انطباقًا وبروزًا على أبنائهم وأحفادهم، فلا غرابة أن نجد منهم تشجيعًا لمن يعتنون بالأدب وحثًّا لهم على الإغراق فيه وزيادة الإنتاج، فلقد طلب الملك الكامل من ابن دحية الأندلسي أن يؤلف له كتابًا يجمع فيه شيئًا من شعر أهل المغرب، فألف له كتاب "المطرب"، ويقال عن ابن شمس الخلافة [1] إنه كان مولعًا باختيار الدواوين والتصانيف، ينسخها ثم يرفعها إلى السلاطين ووجوه الدولة؛ مما يدل على أن هؤلاء الناس لم يشجعوا الشعر المعاصر لهم فقط؛ بل حاولوا الاطلاع على الشعر القديم.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد؛ بل اتسعت عنايتهم بالثقافة العربية حتى أقبل بعضهم على التأليف فيها، ولم يشغلهم عن ذلك أمور الدولة ونشوب الحروب بينهم وبين الصليبيين، واتساع الخلافات بينهم وبين بعضهم، فلقد ذكر ابن سعيد الأندلسي من أنه وقف على مصنف للأفضل ابن صلاح الدين، في الفرق بين الظاء والضاد بخط الأفضل، وقيل عن الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر سلطان حماه، أنه وضع كتابًا في طبقات الشعراء، يتألف من عشرة مجلدات.

وطبعي أن ينتقل حب الأدب العربي والاشتغال به من السلاطين إلى من التف بهم من كبار رجالهم، يستوي في ذلك رجال الحرب والولاة والوزراء والكتاب، وخاصة أن الأخيرين كانوا من أصول عربية، وأن صناعتهم الكتابة، فليس غريبًا عليهم أن ينتجوا الشعر خاصة والأدب عامة.

---

(1) انظر: وفيات الأعيان، ج 1، ص 186.

ولابن شمس الخلافة ديوان من الشعر؛ انظر هذا الديوان بتحقيق د. عبد الرازق حويزي، ط 1 2010، إصدارات مركز حمد الجاسر الثقافي.

ويمكن أن نمثل لهؤلاء الذين أسهموا في إنتاج الشعر بالأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ محمد بن حمويه، وابن النحاس، وابن يغمور وابن شمس الخلافة، والقاضي الفاضل، وابن مجاور، وعلي بن يوسف القفطي.

وهذا كله يدلنا على أن الشعر كان أمنية يتمناها كبار رجال الدولة الأيوبية، وأن الواحد منهم – مهما كان الجنس الذي ينتمي إليه – كان ينظر إلى الشعر نظرته إلى ما يتمم وجوده، ويرفع مكانته.

ومن ثم يمكن القول إن الأدب قد لقي من التشجيع الرسمي مثلما كان يلقى في عهود الحكام العرب أو قريبًا منه؛ ولذلك راج الشعر بينهم رواجًا بعيدًا، ونستطيع أن نرى أمثلة عدة في رسائلهم؛ فقد كان الأيوبيون يتراسلون بالشعر، وكان كل منهم يرسل إلى صديقه أحدث ما نظم وكانوا يبدأون رسائلهم به، ويضمنونه في خلالها، ذاهبين إلى أنه إحدى الحلي التي تتجمل بها الرسائل وتتحلى.

ولقد قيل ذلك عن صلاح الدين عندما استقر في مصر، من أنه بعث لأصدقائه يبشرهم باستقراره، وما لقي من فتح، حيث بعث برسائله يضمنها أبيات شعر كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

ونجد توران شاه يرسل إلى صلاح الدين يعلمه أنه قادم من اليمن، ويأخذ في رسالته أبياتًا من الشعر.

ويمكن أن نستدل أيضًا على رواج الشعر بينهم بالمجالس الأدبية التي كانوا يعقدونها في قصورهم، وتدور فيها المناقشات، والأحاديث الأدبية، وقد أعطانا ابن ظافر الأزدي في كتابه "بدائع البدائه" كثيرًا من الصور لهذه المجالس، روى فيما روى أن الملك الكامل أنشد مرة في مجلس قول الشاعر:

تَرَحَّلَ مَنْ حَياتِي في يَدَيْهِ ... فيَا أَسَفِي ويَا شَوقِي إلَيْهِ

وطلب إلى الموجودين أن يجيزوه، فقال أحدهم:

وَمَـــنْ هَــذَا يكــونُ عَلَيْــه مِــثْلِي وَهــذِي الــرِّيحُ أَخْــشَاهَا عَلَيْــهِ

وقال ثان:

أَلاَ يـــا لَيْتَـــهُ إِنْ كَـــانَ يَـــأْتِي حَيـــاتِي ثُـــمَّ مَـــوْتِي في يَدَيـــهِ(1)

وكان يرسل إلى وزيره أن يصنع المعنى، وأن يأمر الشعراء بذلك، وكان يشترك في المجلس خمسة إلى عشرة شعراء.

ومما يؤثر عن الملك الكامل أنه كان "محبًّا للعلماء وله شعر حسن واشتغال بالعلم" (2)، وقيل إنه كان "يحب العلماء والأماثل، ويلقي عليهم المشكلات، ويتكلم عن صحيح مسلم بكلام مليح (3)، وقيل عنه إنه كانت لديه "مسائل غريبة من الفقه والنحو يوردها، فمن أجاب حظي عنده"(4).

وكان يحب الشعر ويتمثل ببعضه في كثير من الأحيان، وذلك مثل هذا البيت، الذي كان ينشده قبل موته كثيرًا:

يَـــا خَلِـــيلَيَّ خَـــبِّرَانِي بـــصِدْقٍ كيـفَ طَعْـمُ الكَـرَى إِنِّـى نَـسِيتُه (5)

وله أيضًا شعر، ومن شعره قوله في رسالة بعث بها إلى أخيه الملك الأشرف موسى، وقد أشرنا إليها من قبل:

(1) انظر: بدائع البدائه، ص 154.

وانظر: المجالس الأدبية في مصر الإسلامية في العصرين الفاطمي والأيوبي، د. غريب محمد علي، مجلة آداب حلوان، عدد 11، 12، 2002م.

(2) النجوم الزاهرة، ج 6، ص 236.

(3) النجوم الزاهرة، ج 6، ص 227.

(4) النجوم الزاهرة، ج 6، ص 227.

(5) النجوم الزاهرة، ج 6، ص 235؛ وانظر: بدائع الزهور، ابن إياس، ج 1، قسم 1، ص173 (كيف طعم الكرى إني عليل).

يا مُسْعدِي إنْ كُنْتَ حقًّا مُسْعِفِي فانْهَضْ بغير تَلَبُّثٍ وتوقُّفِ
إنْ تأتِ عَبْدَكَ عَنْ قَلِيلٍ تَلْقَه ما بَيْنَ كلِّ مُهَنَّدٍ ومُثَقَّفٍ (1)

ونضيف إلى هذه المجالس الأدبية ما يماثلها من احتفالات أدبية كانت تقام في المواسم المهمة؛ كأن يحرز السلطان انتصارًا كبيرًا، فيقعد لاستقبال رجال الدولة للتهنئة، ثم يقوم بين يديه الشعراء؛ ليشيدوا بهذا الانتصار الذي أحرزه.

واستنتاجًا مما سبق يمكن أن نقول إن الأدب قد لقي تشجيعًا على الصعيد الرسمي، وإن الأمراء الأيوبيين - على الرغم من كونهم غير عرب - قد شجعوا الأدباء، وعملوا على نشر الأدب؛ باعتباره أحد أركان دولتهم، وحاولوا أن يكونوا مثل الحكام العرب رعاية له وتشجيعًا لإنتاجه، ووصل الأمر بجماعة منهم إلى المشاركة في إنتاجه.

ومن ثم فنحن لا نستطيع أن ننظر إلى كونهم أكرادًا، ونقول إن ذلك كان سببًا في تدهور الأدب - كما ادعى الشاعر الذي أشرنا إلى قوله في أول حديثنا؛ لأن هؤلاء السلاطين مثلهم مثل الحكام المسلمين جميعًا - في مصر وفي غير مصر - تلقوا ثقافة عربية إسلامية، قربت بينهم وبين العقل العربي، واتسع بعضهم في الاطلاع على هذه الثقافة حتى كادت الفروق بينهم وبين معاونيهم من العرب تزول.

وبهذه الأدلة كلها التي سقناها، نستطيع أن نبرئ الأيوبيين - في ساحة القضاء الأدبي - من التهمة التي حاول المهذب بن أسعد أن يلصقها بهم، ويبدو أنه لم يكن مهذبًا على الإطلاق حينما أطلق تلك المقولة، التي أثبتنا - بحجج دامغة وبراهين لامعة ساطعة - أن الأيوبيين منها براء.

---

(1) الخطط، ج 4، ص 212.

وكان يعجبه هذان البيتان وينشدهما:

ما كنت من قبل ملك قلبي تصد عن مدنف حزين
وإنما قد طمعت لما حللت في موضع حصين

2- أثر التشيع في الشعر الأيوبي

قامت الدولة الأيوبية على أساس سني، مخالف تمام المخالفة للأساس الشيعي الذي قامت عليه الدولة الفاطمية، وقد حاولت أن تقضي على المذهب الشيعي، وعلى كل ما يتصل به ويدعو إليه ويذكر به.

وكان للشعر الأيوبي نصيب وافر من هذه الحرب الفكرية التي شنتها الدولة الأيوبية، وكان من وسائلها في ذلك أن جعلت من مهمة المحتسب مراقبة تعليم الصبية، ومنعهم من أن يتلقوا شيئًا من الشعر الفاطمي؛ حتى لا يحفظوه أو يتعرفوا عليه، وكذلك تجاهل المؤلفون في العهد الأيوبي ما قيل من شعر في الدولة السابقة، خاصة في مدح خلفائها، وعندما اضطروا إلى الإشارة إلى ذلك الشعر، اقتصروا على ما فيه من غزل أو وصف، وحتى الشعراء أنفسهم الذين عاشوا في أيام الدولتين أجبرتهم الظروف والأحداث على عدم روايتهم لمدائحهم في رجال الدولة الفاطمية، والاقتصار على المقدمات الغزلية لقصائدهم عند إنشادها [1].

وكان من وسائل الدولة الأيوبية في القضاء على المذهب الشيعي، إقامة المدارس السنية، وتحويل مدارس الشيعة إلى مدارس سنية تدرس أصول المذهب السني، كما أقامت للفقراء والمتصوفة كثيرًا من الخوانق والربط.

وفطنت إلى أهمية الكتب الفاطمية إن ظلت متداولة، فقامت بإتلاف جزء كبير منها، وشجعت الفقهاء وقربتهم وأغدقت عليهم الأموال.

والحق أن العصر الأيوبي "يمثل – من الناحية الفكرية – ثورة الفكر السني"[2] على العقيدة الشيعية، ومحاولة إبادتها بكل سبيل.

ولكن هذه الحرب الشعواء على الشعر الفاطمي والفكر الفاطمي والمكتبة الفاطمية والتراث الفاطمي، لم تمح الصور الفنية والأفكار التي أتى بها شعراء الفاطميين محوًا تامًّا؛

(1) انظر: الرواسب الشيعية في الشعر الأيوبي، د. غريب محمد علي، ص 91، سنة 1977.

(2) الأدب في العصر الأيوبي، د. محمد زغلول سلام، ص 7، ط دار المعارف، سنة 1968.

بل إن المذهب الشيعي نفسه لم يستطع الأيوبيون أن يقضوا عليه قضاء تامًّا وسريعًا، على الرغم من محاربته في كل مكان، وعلى الرغم من الصراع الذي نشب بينهما منذ قيام الدولة الفاطمية نفسها.

وتدلنا الدلائل على أن المذهب الشيعي مذهب نظري مكتمل، لكنه يحمل في طياته البذور التي تهدمه؛ فهو عندما يحقق أو يطبق في دولة من الدول تتكشف فيه مواضع من الخلل ليست طارئة، إنما هي أصيلة نابعة من المذهب نفسه.

فمبدأ عصمة الإمام - الذي يعني التنزه عن ارتكاب المعاصي والفواحش، وهو محور من أهم محاور عقيدتهم، ومبدأ من مبادئهم - لا يمكن أن يتحقق في واقع حياتنا؛ لأن واقع الحياة يأتي بأشياء كثيرة ليست على هوى الإمام، ولا على هوى المحكومين، ولا في صالح الدولة التي يحكمها، وذلك مثل الأزمات الاقتصادية التي عانتها مصر أيام المستنصر.

وكذلك النص على ولاية العهد؛ فلقد اضطر الفاطميون أنفسهم إلى الإخلال به في بعض الأحيان، فعندما مات المستنصر كان من المفروض أن يتولى مكانه ابنه الأكبر نزار، ولكن الوزير الأفضل حجب عنه الخلافة، وأعطاها لأخيه الأصغر المستعلي، وقد أدى هذا إلى انقسام الدعوة الفاطمية إلى فرقتين: نزارية في المشرق وإيران ومنهم الحشاشون، ومستعلية في مصر والمغرب، وكذلك لما مات الآمر مخلفًا طفلًا يسمى الطيب، لم يول الخلافة، وإنما تولاها الحافظ، مدعيًا أنه وصي على الخلافة فقط في بداية الأمر، ثم ادعى الخلافة لنفسه بعد ذلك، ويبدو أن الطيب قد قتل؛ مما أدى إلى افتراق الدعوة مرة أخرى إلى طيبية في اليمن، وحافظية في مصر.

وكذلك **التطرف في الصفات** التي أعطاها الشيعة لإمامهم؛ فلقد كان هذا التطرف غريبًا على الاعتدال المصري، وخاصة إقامة المذهب على أصول فلسفية غامضة، وقد استغل جماعة هذا التطرف، فجاوزوا

الحد المألوف، وادعوا أن الحاكم إله؛ مما أفزع السنة والشيعة معًا، واضطر البيت الفاطمي نفسه إلى قتل الحاكم تخلصًا منه.

ومن ثم نرى علامات بارزة على قوة المذهب السني منذ منتصف العهد الفاطمي، ومن أبرز هذه العلامات أننا نجد أحد الوزراء - وهو العادل بن السلار الذي وزر للظافر سنة 544هـ - قد أقام مدرسة سنية مهمة في الإسكندرية، ووكل أمرها إلى أبي طاهر السلفي.

ونستطيع أن نتعرف على وجود السنيين وكثرتهم من بعض رسائل القاضي الفاضل، التي يصف فيها تسلط الشيعة على السنة؛ إذ يقول في إحداها: "إن كلمة السنة بها (أي مصر) وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة فإنها متحاماة، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله تعظم وتفخم" (1).

ومعنى ذلك أن صراعًا كان دائرًا بين العقائد السنية والعقائد الشيعية، استمر طوال العهد الفاطمي، ولم ينقطع هذا الصراع بقيام الدولة الأيوبية التي ساندت العقائد السنية بجميع قواها، ولكنها لم تستطع أن تقضي عليه وعلى معتنقيه تمامًا.

ويمكن أن نستدل على بقاء هذا المذهب الشيعي من الحركات المتعددة التي قام بها الشيعيون محاولين أن يعيدوا الدولة الفاطمية الشيعية مرة أخرى، وذلك مثل المؤامرة التي قام بها هبة الله بن كامل قاضي القضاة وداعي الدعاة سنة 569هـ (2).

وشارك فيها الشاعر عمارة اليمني، ومثل الثورة الكبيرة التي قام بها كنز الدولة بن المتوج في أسوان سنة 574هـ (3)، ولم يستطع الأيوبيون القضاء عليها إلا بعد مشقة كبيرة،

(1) الروضتين ج1، ص 241.
(2) انظر: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 70.
(3) المصدر السابق، ج 6، ص 78.

ومثل الحركة التي قامت في القاهرة سنة 584هـ [1]، وقلق لها صلاح الدين، والحركة التي قامت في الصعيد بقيادة داود ين العاضد، أو من ادعى أنه كذلك.

ويدلنا على بقاء المذهب الشيعي بعد انقضاء دولته – في الصعيد خاصة – وجود قرى كاملة كانت تدين بالمذهب الشيعي مثل أدفو وإسنا وأسفون، ويحدثنا الأدفوي في الطالع السعيد عن هذه القرى، فيقول مثلًا عن إسنا: "وكان التشيع بها فاشيًا والرفض ماشيًا"[2]. ويقول عن أسفون: "بلدة معروفة بالتشيع الشنع" [3]. ويقول عن أدفو: "وكان التشيع بها فاشيًا" [4].

وقد اضطر علماء السنة وحكامهم إلى بذل الجهود العلمية المختلفة لتحويل الشيعة إلى سنيين، وذلك مثل جهود ابن دقيق العيد الفقيه الصوفي الشاعر، ومثل جهود هبة الله بن عبد الله حاكم إسنا.

فالصراع – إذن – ظل مستمرًّا بين المذهبين، ولم يستطع الأيوبيون القضاء تمامًا على المذهب الشيعي المخالف لعقيدتهم، ومن ثم فلا غرابة أن نجد علماء وشعراء شيعة ظلوا إلى ما بعد العصر الفاطمي، وعاشوا في ظل الدولة الأيوبية السنية.

ولقد تعددت آثار ذلك المذهب الشيعي في الشعر الأيوبي، ويمكن أن نقسم تلك الآثار إلى قسمين متميزين، هما:

1- الآثار الشيعية التي أنتجها شعراء من الشيعة، وهي آثار طبيعية؛ لأنها ثمرة المذهب الذي يعتنقونه.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير، ج 12، ص 331.

(2) الطالع السعيد، للأدفوي، ص 38، تحقيق: سعد محمد حسن، ط الدار المصرية للتأليف، سنة 1966.

(3) المصدر السابق، ص 39.

(4) المصدر السابق، ص 37.

2- آثار أنتجها شعراء السنة في مدح رجال السنة، ولكن كيف تسربت إليهم هذه الأفكار؟ هذا ما يحتاج إلى تفسير.

وتفصيل هذين القسمين على النحو التالي:

أولا: شعر الشعراء الشيعيين "الآثار الشيعية في شعر الشيعة":

إذا كان من اليسير علينا أن نفرق بين هذين النوعين من الشعر، فإن هذه التفرقة تفرقة نظرية؛ لأننا عندما نأخذ في تطبيقها تتبين أمامنا مصاعب متعددة؛ إذ ليس من اليسير على الإطلاق أن نفرق بين الشاعر الشيعي وزميله السني إذا لم يكن أمامنا غير شعره؛ لأن الشعر عند الاثنين اتخذ مسارًا واحدًا، وخاصة عند المعتدلين من الشيعة، وقد غلب الاعتدال على شعراء العصر الأيوبي غلبة إجبارية؛ لأن الدولة كانت معادية للمذهب الشيعي، وإذا اعتدل الشيعي كادت الفروق بينه وبين السني تزول، وخاصة إذا لجأ السني إلى المغالاة.

فإذا لم يجتمع مع هذا الشعر الذي نجد فيه شيئًا من المغالاة وتنعدم فيه الآراء الفلسفية الشيعية، إذا لم يجتمع معه أخبار تكشف عن سنية الشاعر أو شيعيته، لم نستطع أن نفعل ذلك استدلالًا من الشعر وحده.

ولكن – لحسن الحظ – لدينا مجموعة من الأخبار تصرح بشيعية بعض الشعراء الذين نواجههم في العصر الأيوبي، بل والمملوكى أيضًا، كما لدينا مجموعة من الأخبار تبين أن بعض هؤلاء الشعراء اشتركوا في بعض الحركات والثورات الشيعية التي وقعت في مصر في العهد الذي ندرسه، مثل إبراهيم بن محمد بن علي الأدفوي، الذي مدح داود بن العاضد، ومثل الشعراء الذين مدحوا كنز الدولة، الذي قام بثورة عاتية ضد صلاح الدين الأيوبي، وهم شعراء كثيرون، يمكن أن نذكر منهم محمد بن علي ومحمد بن رائق المكين، والحسن بن الزبير.

وإذا ابتعدنا عن هذا الشعر المعتدل، أو الذي لا يمكن الحكم عليه، وجدنا مجموعة من القصائد التي أنتجها شعراء لا نشك في تشيعهم؛ لأن الآراء التي كشفوا عنها في قصائدهم تتفق مع بعض المبادئ الشيعية التي لا يقول بها السنيون، كما أن المصادر قد صرحت بشيعيتهم.

ويمكن أن نمثل لهذا النوع من الشعر بقول أبي العباس شهاب الدين بن عبد الملك العزازي (ت سنة 710هـ):

وإلَّا لا اعْتقـــدْتُ وَلاَ عَـــلِي ... وَلَا أضـمرْتُ حُـبَّ بَنِـي عَـلِي [1]

مشيرًا في الشطر الأول إلى ما يدعيه الشيعة من أن الرسول ﷺ قال عن علي بن أبي طالب: "من كنت مولاه فعلي مولاه"، ومشيرًا في الشطر الثاني إلى عقيدة الحب عند الشيعة – حب الإمام – وهذا نوع من التقديس والتبجيل يجب أن يؤدى للإمام، ثم يقول العزازي مادحًا آل البيت وراثيًّا، ثم هاجيًا أعداءهم:

أُنــاسٌ أَدْرَكُــوا أَمَــدَ المَعَــالِي ... ونَــالُوا رُتْبَــةَ الــشَّرَفِ العَــلِيّ

هُــمُ سُـحْبُ النَّـدَى يَـوْمَ العَطَايَـا ... ويــومَ الفَخْــر أقْــمَارُ النَّــدِيّ

إذَا كـــرَّرتُ ذكـــرَكُمْ كَـــأنِّي ... فَتَقْــتُ لطَــايمَ المِــسْكِ الزَّكِــيّ

تُــرَى بعــدَ الحُــسينِ يَــسُوغُ مَــاءٌ ... ويَحْلُــو مَــوْرِدُ العَــيْشِ الهَنِــيّ؟

وأيَّـــةُ عِيــشةٍ تحلُــو وتــصفُو ... وقــدْ جَــارَ العــدوُ عَــلَى الــوَلِيّ

لقــدْ ظَلمُــوا ومــا حــازُوا حقوقًــا ... لفاطمــةَ البتــولِ ولاَ الــوَصِيّ

بِكُـــمْ يَـــا آلَ ياســـينَ وطَـــه ... تُحَــطُّ خَطيئَــةُ الجَــانِي المُــسِيّ

ويَحْظَــى بالــشفاعةِ كُــلُّ عَــاصٍ ... ويــسعدُ كُــلُّ مُجْــترِمٍ شَــقِيّ

---

(1) ديوان العزازي، ص 7، مخطوط بدار الكتب 282 تيمور.

وانظر: الديوان بتحقيق د. رضا رجب، ص 35، ط 1، دار الينابيع – دمشق، سنة 2004.

سـلامُ اللهِ والرِّضْـوانُ مِنْـهُ عَلَـيْكُم في الغُـدوِّ وفي العَـشِيّ [1]

إذا نظرنا إلى هذه القصيدة يمكن أن نحكم على صاحبها بالتشيع دون أن يخبرنا بذلك مؤرخ أو مترجم؛ فالشاعر يستوحي ما عند الشيعة من أحاديث نبوية تدعم ما يذهبون إليه من عقائد، مثل ولاية النبي لعلي، وكونه الوصي، وذلك مثل قوله ﷺ عن علي: "اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله"[2]، ومثل حديث الثقلين، وغيره من الأحاديث التي يرى الشيعة أنها نص صريح بولاية علي.

ويستوحي الشاعر كذلك الأحداث الشيعية، فيتهم أبا بكر بالظلم وأكل حقوق السيدة فاطمة البتول؛ إذ حرمها من وراثة أبيها، مستدلًّا في ذلك بقول النبي ﷺ: "إنا معشر الأنبياء لا نورث".

ويشير الشاعر في هذه القصيدة إلى شفاعة آل البيت للجناة والعاصين والمجرمين، وهذه عقيدة شيعية محضة.

ويتحدث عما وقع للحسين بن علي في كربلاء من بلاء، ويرى أنها كارثة الكوارث التي حلت بالشيعة، وهيهات أن يصفو العيش أو يحلو الماء بعد مقتل الحسين.

ونجد مثل هذه الأفكار في قصيدة الحسن بن منصور، المعروف بابن شواق الإسنائي (ت سنة 706هـ)؛ حيث يقول عن العلويين:

قُلِّـدُوا أمـرًا عظـيمًا شَـأْنُه فَهـو في أعنـاقِهِمْ مِثْـلُ الوِشَـاحِ
أُمَنَـاءُ اللَّهِ في الـسِّرِّ الـذي عَجَـزَتْ عَـنْ حَمْلِـه أهـلُ الـصَّلَاحِ
هُـمْ مَـصَابيحُ الـدُّجَى عِنْـدَ الـسُّرَى وَهُـمْ أُسْـدُ الـشَّرَى عِنْـدَ الكِفَـاحِ

(1) ديوان العزازي، ص 7، وفي الديوان المحقق، ص 36-37.
(2) مسند الإمام أحمد، ج 2، ص 201، ط المعارف – مصر، سنة 1366هـ.

أَهْــــــلُ بيـــــتِ اللَّهِ إذْ طَهَّــــــرَهُ فجَمِيـعُ الـرِّجْسِ عَـنْهُم في انْتِـزاحِ
آلُ طَـــه لـــوْ شَرَحْنَـــا فَـــضْلَهُمْ رجعــتْ مِنَّــا صُــدورٌ في انْــشِرَاحِ
جــدُّكُمْ أشرفُ مَـــنْ دَاسَ الثَّـــرَى فِي مَقَـــــامٍ وغُـــــــدوٍّ ورَوَاحِ
وأبُـــوكُم بعْــــدَهُ خَــــيْرُ الـــوَرَى فــارسُ الفُرْسَــانِ في يــومِ الكِفَــاحِ
وارِثُ الهَـــادِي النَّبِـــي المُـــصْطَفَى مَـا عَـلَى مَـنْ قَـالَ حَقًّـا مِـنْ جُنَـاحِ[1]

فالشاعر يشير إلى ما تقلده الشيعة من أمر عظيم، ويريد بذلك الإمامة التي هي حق لآل البيت دون سواهم، وهم أمناء الله على تعاليمه ودينه، ثم يشير إلى الآية القرآنية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:33][2]، التي يرى الشيعة أنها نزلت في حق آل البيت، وأنها تشير صراحة إلى أحقيتهم في الخلاقة، كما يذكر أن عليًّا هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وخيرهم، وأحقهم بالخلافة، فهو وارث النبي في هذا الأمر - بلا شك.

وإذا عرفنا أن ابن شواق قد مات سنة 706 هـ ، والعزازي توفي 710هـ، تبين لنا – في جلاء – أن شعراء الشيعة قد وجدوا في جميع العصر الأيوبي؛ بل عاش بعضهم في العصر الذي تلاه.

ونستطيع أن نقول إن الشعراء السنيين الذين عاشوا في العصر الأيوبي، عاش إلى جوارهم شعراء شيعيون، ذكروهم بالتراث الشيعي الذي ملأ العهد الفاطمي السابق، فلا عجب - إذن - أن يتأثر الشعراء السنيون إما بمن يعيشون معهم من الشيعة، وإما بالتراث الذي وصل إليهم من شعراء الفاطميين.

(1) الطالع السعيد، ص 213.
(2) سورة الأحزاب: آية 32.

ثانيًا: شعر الشعراء السنيين "الآثار الشيعية في شعر السنة":

عندما نتناول ما أصدره الشعراء السنيون من مدائح، أتوا فيها بأمور يرى بعض الدارسين أنها وليدة التأثر بالمذهب الشيعي، أو الاطلاع على الأدب الفاطمي، نرى أنفسنا – في بعض الأحيان – على غير يقين من هذا الكلام؛ لأن بعض هذه الأمور يحتمل أن يكون مغالاة من رجل سني لم يتأثر بتشيع، ولكن هذه المغالاة أدت إلى أن يلتقي بالشيعة في بعض آرائه، بل ربما وجدنا بعض هذه الصفات التي أمامنا إذا أخذناها على ظاهرها، فهي سنية لا شيء فيها، وإن أخذناها على التفسير الفاطمي فهي تأثر شيعي لا شك فيه.

ولعل ذلك هو الذي دفع ببعض المؤرخين إلى أن يتهم بعض الشعراء بالتشيع، كما قال ابن سعيد الأندلسي عن ابن سناء الملك، ولكننا لم نجد من تابعه على هذه التهمة، وكما قال بعض المؤرخين عن ابن النبيه المصري طاعنًا في دينه.

وإذا تتبعنا هذه الآثار التي وقف مؤرخو الأدب عندها، زاعمين أنها من آثار التراث الشيعي، وجدنا القسط الأعظم منها يدور حول الصفات التي أطلقها الشعراء على الممدوحين؛ إذ نجد المدائح التي وجهت إلى الخلفاء العباسيين أو السلاطين الأيوبيين أو الوزراء، تحتشد فيها مجموعة من الصفات التي تتصل بالصفات الشيعية، وذلك مثل تمثيل الممدوحين بالأنبياء، يقول ابن سناء الملك مخاطبًا صلاح الدين الأيوبي:

أَعَـدْتَ إِلَى مِـصْرَ سياسـةَ يُوسُـفٍ ... وجـدَّدتَ فِيهـا مِـنْ سَـمِيِّكَ مَوْسِـمَا
وأحْييـتَ فِيهـا الـدِّينَ بَعْـدَ مَمَاتِـه ... فأَنْـتَ ابـنُ يَعْقُـوبٍ وأَنْـتَ ابـنُ مَـرْيَمَا
بَقِيــتَ إِلَى أَنْ تَمْلِــكَ الأَرْضَ كُلَّهــا ... ودُمْـتَ إِلَى أَنْ يَرْجِـعَ الكُفْـرُ مُـسْلِمَا(1)

فابن سناء الملك هنا يمثل صلاح الدين بسيدنا يوسف عليه السلام، والسبب في ذلك هو وحدة الاسمين، فكل منهما يدعى يوسف، ثم مثله بالسيد المسيح عليه السلام بجامع

---

(1) ديوان ابن سناء الملك، تحقيق محمد إبراهيم نصر، ج 2، ص 273، ط دار الكاتب العربي، سنة 1969م.

أن المسيح كان يحيي الموتى (بإذن الله)، وأن صلاح الدين أحيا الدين (يقصد المذهب السني) في مصر بعد أن غلب التشيع عليه.

هذه الأفكار لا مخالفة بينها على الإطلاق وبين المذهب السني؛ بل يمكن أن تصدر من شاعر سني لم يتأثر بالتشيع، ولا نتهمه حتى بالمبالغة.

ولكننا إذا قلنا إن هذه الأفكار لها باطن – كما يقول الفاطميون الشيعة – وأنها تدل في اعتقادهم على أن من يتولى الإمامة يمثل الأدوار التي مر بها الأنبياء جميعًا، فهو يمثل يوسف ويمثل المسيح وغيرهما من الأنبياء، إن ذهبنا إلى ذلك، قلنا إن هذه الأبيات وما تماثلها آتية عن تأثر شيعي.

وهذه الظاهرة تتكرر في قول ابن النبيه حين يمدح الخليفة الناصر أحمد:

بَغْدادُ مَكَّتُنَا وأحْمَدُ أَحْمَدُ ... حُجُّوا إِلَى تِلْكَ المَنَازِل واسْجُدُوا

يا مُذْنِبينَ بِهَا ضَعُوا أَوْزَارَكُم ... وَتَطَهَّرُوا بِتُرابِها وتَهَجَّدُوا[1]

وتتكرر في قول ابن مطروح حين يمدح الملك الكامل محمدًا:

يَا نَاصِرَ الدِّينِ الحنيفِ بِسَيْفِه ... ومُذِلَّ أهلِ الشِّرْكِ والطُّغْيَانِ

أمَا وَقَدْ عَلقتْ يدِي بمحمدٍ ... وَظفِرْتُ مِنه ببيعةِ الرِّضْوَانِ

أنَا فِيكَ حَسَّانٌ وأنْتَ محمدٌ ... بِمُحمدٍ عَطْفًا عَلَى حسَّانِ[2]

---

(1) ديوان ابن النبيه، ص 3، تحقيق: عبد الله فكري، سنة 1313هـ.

وانظر: تحقيق د. عمر محمد الأسعد، ص 83، ط 1، دار الفكر، سنة 1969.

(2) شعر ابن مطروح، جودة أمين حسن، ص 174، رسالة ماجستير، سنة 1976، دار العلوم.

وانظر الديوان تحقيق د. حسين نصار، ص 39، ط دار الكتب المصرية، سنة 2004.

وكما يصعب علينا أن نقول إن هذه الصفات نتيجة تأثر - لا شك فيه - بالتشيع، كذلك يصعب علينا أن نحكم هذا الحكم على قول ابن سناء الملك في مدح القاضي الفاضل:

يـــا كعبـــةً طـــافَ المُلُـــوكُ بِهَـــا بَـــلْ قبْلـــةً حـــجَّ الأنَـــامُ لَهَـــا[1]

وقد نسحب الحكم أيضًا على مدح الشعراء الخليفة العباسى بأنه شفيع لهم يوم القيامة، وهذه الصفة مأخوذة من شفاعة النبي للمسلمين، ولكن الشعراء بالغوا فيها وتوسعوا بحيث اشتملت الهاشميين بدلًا من قصرها على النبي وحده، وفي هذا المعنى يقول ابن النبيه في مدح الناصر أحمد:

يَـا مُعِينـي إذَا دَجَـتْ ظُلْمـةُ القَبْـ ـرِ وخَاطَبْـتُ مُنْكَـرًا ونَكِـيرَا
يـا مُجِـيرِي إنْ خِفْـتُ يَومًـا عَبوسًـا مكفهـرًا مُسْتَعْـصبًا قَمْطَرِيـرَا
يـــا مُغِيثــي والنَّـــارُ تُوقــدُ بالنَّـــا سِ وتَرْمِـي شَرَارَهـا المُـسْتَطِيرَا
يـــا دَلِـيلي عَــلَى الــصِّرَاطِ إذَا مَــا أدْهَـشَ الخـوفُ نَـاظِري تَحْيـرَا
بِـــوَلائِي أمِنْـــتُ مِـــنْ سَـــيئاتِي يـــومَ أَلْقَـــى كتـــابِيَ المَنْـــشُورَا[2]

ونسحب هذا الحكم أيضًا على القول إن طاعة الخلفاء ضرورية، وإن ذكر الخلفاء ضروري في الصلاة، فإن لم يذكروا أبطلت؛ ولذلك نجد ابن النبيه يقول في مدح الناصر أحمد:

كُـلُّ الـصَّلاةِ خِـدَاجٌ لا تمَـامَ لَهَـا إذَا تقـضَّتْ وَلَمْ يـذْكُرْه ذَاكِـرُه[3]

ويقول أيضا:

(1) ديوان ابن سناء الملك، ص 249.

(2) ديوان ابن النبيه، ص 6؛ وانظر: ص 102-103 في طبعة دار الفكر.

(3) ديوان ابن النبيه، ص 8.

أنــتَ يــا ابــنَ النَّبِــي خَابَــتْ صَــلاةٌ   لمْ تكُــــنْ في خِلاَلِهــا مَـــذْكُورَا[1]

ولكن هناك من الصفات ما يبعد عن المذهب السني، ويقترب من المذهب الشيعي اقترابًا كبيرا؛ ولذلك نحكم على الشاعر الذي يستخدمها في شعره بأنه متأثر بالتشيع، وذلك مثل ابن سناء الملك حين يقول في صلاح الدين:

نُــصِرْتَ بــأَفْلاَكِ الــسَّمَاءِ فــشُهْبُهَا   خَمِيسٌ بــهِ تُـرْدِي الخَمِيسَ العَرَمْرَمَـا

رَقِيــتَ إِلَى أنْ لَمْ تَجِــدْ لَــكَ مُرْتَقــى   وأقْــدَمْتَ حتَّــى لم تَجِــدْ مُتَقَــدَّمَا

فــما يُــبْرِمُ المِقْـدَارُ مَــا كُنْــتَ نَاقِـضًا   ومَـا يـنقُضُ المقـدارُ مَـا كُنْـتَ مُبْرِمَـا[2]

فالبيت الأخير متأثر فيه الشاعر – بلا شك – تأثرًا واضحًا بما قاله ابن هانئ الأندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

مَــا شِــئْتَ لا مَــا شَــاءَتِ الأَقْـدَارُ   فــاحْكُمْ فأَنْــتَ الوَاحِــدُ القَهَّــارُ

وكَــأَنَّمَا أَنْـــتَ النَّبـــيُّ محمــــدٌ   وكــــأنَّما أنْــــصَارُكَ الأنْــــصَارُ[3]

ويظهر هذا التأثر أيضًا حينما يصف الشاعر ممدوحه بأنه باب النجاة والصراط المستقيم أو المهدي المنتظر، وهذه الصفات لا نجد مثلها، ولا تصورًا واضحًا لها عند السنة، ولكنها ذات دلالة غير خافية عند الشيعة، وذلك كما نقرأ في قول ابن النبيه حين يمدح الناصر أحمد:

بــابُ النَّجــاةِ مدينــةُ العلــمِ الَّتِــي   مـــا زالَ كَوْكـــبُ هَـــدْيِهَا يتوقَّـــدُ

هَـذا هُــوَ الــسِّرُّ الـذي بَهَـرَ الـورَى   فِي ظَهْـــرِ آدمَ والملائــكُ سُـــجَّدُ

هـــذا الـــصِرَاطُ المـــستقيمُ حقيقــةً   مَــنْ زَلَّ عنــهُ ففِــي الجحـيمِ يُقَيَّــدُ

---

(1) ديوان ابن النبيه، ص 6.

(2) ديوان ابن سناء الملك، ص 271.

(3) ديوان ابن هانئ الأندلسي، ص 146، ط دار صادر – بيروت.

القـــائمُ المهـــديُّ أنْـــتَ بَقِيـــتَ للْـــ إِســـــلامِ تمهــــدُ تـــــارةً وتُــــشيِّدُ

بُعْـــدًا لمُنْتَظـــرٍ سِـــواهُ وَقَـــدْ بـــدَتْ مِنْـــهُ البراهـــينُ التـــي لا تُجْحَـــدُ(1)

وكذلك نجد بعض الشعراء السنيين يستوحون بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي استوحاها الشيعة، ويستلهمون ما يصفون بها ممدوحيهم؛ كأن يستلهم ابن سناء الملك الحديث الذي يرويه الشيعة عن علي بن أبي طالب، وكونه مولى النبي ﷺ، وأن النبي أمر بولايته، يقول ابن سناء الملك في مدح علي بن نور الدين:

مَـــوْلَى الأنَـــامِ عَـــليٌّ هَكَـــذا نَقَلَـــتْ لنَـــا الـــرُّواةُ حـــديثًا غَـــيْرَ مُخْتَلَـــقِ(2)

واستوحى ابن النبيه الحديث نفسه في مدحه الخليفة الناصر، وإن كان استيحاء غير مباشر، فقال:

اللهُ أنْـــــزَلَ وَحْيَـــــه لمُحمَّـــــدٍ وإلـــــيكمُ وَصَّى بِـــــذَاكَ مُحَمَّـــــدُ(3)

فالشاعر هنا يرى أن النبي المصطفى ﷺ قد أوصى بالخلافة للعباسيين، مع أن ذلك لم يحدث على الإطلاق.

وكذلك نجد صفة قاطعة في التأثر بالتشيع، حينما يقول ابن النبيه (وهو يعني بغداد):

فَهُنَـــاكَ مِـــنْ جَـــسَدِ النُّبُـــوةِ بَـــضْعَةٌ بـــالوَحْي جبريـــلٌ لَهَـــا يَـــتَرَدَّدُ(4)

إذ يصف الخلفاء العباسيين ببضعة من الرسول، مع أنهم لا يمكن أن يوصفوا بذلك؛ لأنهم ليسوا أولادًا للنبي، فهذا الوصف خاص بالعلويين.

(1) ديوان ابن النبيه، ص 3، 4، وفي ط دار الفكر، ص 84.
(2) ديوان ابن سناء الملك، ص 204.
(3) ديوان ابن النبيه، ص 4، وفي ط دار الفكر، ص 85.
(4) ديوان ابن النبيه، ص 4، وفي ط دار الفكر ص 84.

أما إذا وصف الشاعر الخليفة بالاطلاع على الغيب، فإن ذلك يثير مشكلات شتى، وذلك مثل قول ابن النبيه في مدح الناصر أحمد:

لَـهُ عَـلَى سِـتْرِ سِرِّ الغيْـبِ مُطلـعٌ فَـمَا مَـوَارِدُه إِلَّا مَـصَادِرُه[1]

فهل أتى بها الشاعر السني مبالغة ومغالاة؟ هذا جائز، أم أتى بها تأثرًا بالعقائد الشيعية؟ ذلك جائز أيضًا، أم لأن كثيرًا من شعراء العصر الأيوبي عاشوا في ظل دولة شيعية، فاطلعوا على الفكر الشيعي، وعاش إلى جوارهم شعراء شيعة، فسايروهم في فكرهم، ذلك جائز أيضًا تفسيرًا لهذه الظاهرة.

3. شعر الحرب في العصر الأيوبي

لعل أول تصور يرد على الخاطر عند سماع الدولة الأيوبية هو الحروب الصليبية، وقد لا نبالغ حين نقول: إنه لولا هذه الحروب ما وجدت تلك الدولة التي نشأت حربية وانتهت حربية، وظل سلاطينها قادة للجيش ورجال حرب.

والحق أن الدولة الأيوبية ما قامت إلا لتطهير البلاد من العار الذي لطخها به الاحتلال الصليبي، وكان هذا هو الهدف الواضح لتلك الدولة، ومن ثم عبئت الأمور جميعًا لتحقيق هذا الهدف.

لقد ألقت الحروب الصليبية ظلالها على المجتمع الأيوبي والعصر الأيوبي في جميع مناحيه وألوان نشاطه، وخاصة الشعر، فانطلق الشعراء يتحدثون عن تلك الحروب في شعرهم.

ونحن حين نتحدث عن شعر الحرب في العصر الأيوبي نجده وافرًا غزيرًا بين أيدينا، وبارزًا في المعارك والنتائج التي خلفتها تلك الحروب.

---

(1) ديوان ابن النبيه، ص 7، وفي ط دار الفكر ص 95.

ويمكن تقسيم هذا الشعر الذي يتحدث عن تلك الحروب إلى شعر مباشر وآخر غير مباشر، وطبعي أن يكون **النوع الأول** هو النغمة العالية في ذلك العصر؛ فهو الشعر الذي يتحدث عن المعارك، فيصفها ويصف أدواتها وأسلحتها، ويحث عليها، ويتحدث عما دار بها من كر وفر ومنازلة، ويستصرخ المسلمين، ويمجد الأبطال والفرسان، وأما **النوع الثاني** فهو الذي يتحدث عن نتائج تلك الحروب؛ من هزائم أو انتصارات، ووقْع ذلك على المجتمع الإسلامي، ويتحدث عن الخراب والدمار الذي خلفته تلك الحروب، كما يمدح الأبطال، ويهنئ المسلمين، ويتحدث عن تشريد الصليبيين وتشتيتهم، وما أوقعه المسلمون بهم من هزائم منكرة.

ونستطيع أن نرى في الشعر الأيوبي التطورات التي جدت على المجتمع في سبيل مواجهة تلك الحروب، فنرى محاولة تعبئة المشاعر وإثارة الحماس في مصر والشام لتحمل أعباء الحرب، ونرى محاولة إقامة دولة موحدة تضم أرجاء البلدين، والاستفادة من هذه الوحدة.

ويمكن أن نبدأ دراستنا لهذا الشعر بما ظهر فيه من دعوة إلى **الوحدة الإسلامية**، فلقد كان المغيرون يرفعون الصليب شعارًا لهم؛ ولهذا كان رد الفعل الطبيعي أن يرفع المسلمون شعارًا مماثلًا، وهو الهلال.

لقد سعى صلاح الدين الأيوبي إلى هذه الوحدة الإسلامية، واستطاع أن يتمها ويحكمها؛ مما يسر له إخراج الصليبيين من كثير من المدن التي احتلوها، وتوج عمله هذا بتطهير بيت القدس.

وقد مثَّل هذا الشعر السعي الحثيث إلى الوحدة الإسلامية، وخاصة الوحدة بين مصر والشام، وظهر هذا السعي – في سبيل الوحدة – عند ابن سناء الملك، الذي أشاد بدخول حلب تحت إمرة صلاح الدين .. يقول ابن سناء الملك في قصيدة له متحدثًا عن ذلك الأمر:

بِدَولَـةِ الـتُّرْكِ عَـزَّتْ مِلَّـةُ العَـرَبِ ... وبـابنِ أيـوبَ ذلَّـتْ شِـيعَةُ الـصُّلُبِ

وفي زمـانِ ابـن أيـوبَ غَـدَتْ حلـبٌ مِنْ أرضِ مِصْرَ وعادتْ مصرُ مِنْ حَلَبِ
ولابـنِ أيـوبَ دانـتْ كُـلُّ مملَكَـةٍ بالـصَّفْحِ والـصُّلْحِ أو بـالحَرْبِ والحَرَبِ
إنَّ العواصـمَ كانـتْ أيَّ عاصـمةٍ معـصومةً بتعاليهَـا عـن الرُّتَـبِ
لـوْ رَامَهـا الـدَّهْرُ لَمْ يَظْفَـرْ بِبُغْيتـهِ ولـوْ رَامَها بِقَـوْس الأفْـقِ لم يُـصِبِ[1]

ويرى ابن سناء الملك أن صلاح الدين لم يجبر هذه البلاد على الدخول في مملكته عن إكراه، وإنما كانت هذه المدن راغبة فيه متمنية حكمه؛ لأن الأمراء الذين يحكمونها غير صالحين لهذا الحكم، يقول عن هؤلاء وعما فعله صلاح الدين بهذه البلاد:

تَفَرَّغُـوا لِنَعـيمِ العَـيْشِ واشْـتَغَلُوا عـنِ الثُّغـورِ بلَـثْمِ الثَّغْـرِ والـشَّنَبِ
أرضُ الجَزيـرةِ لم تظفـرْ بمَالِكِهَـا بِمَالـكٍ فَطِـنٍ أو سَـائِسٍ دَرِبِ
حتَّى أتاهَا صلاحُ الدِّينِ فانْصَلَحَتْ مِنَ الفَسَادِ كما صَحَّتْ مِنَ الوَصَبِ
واسْـتَعْمَلَ الجِدَّ فِيهَـا غَـيْرَ مُكْـتَرِثٍ بالجِـدِّ، حتَّـى كَـأَنَّ الجِـدَّ كَاللَّعِـبِ
بِـكَ العَواصـمُ طَابـتْ بعـدَمَا خَبُثَـتْ بِمَالِيكِهَـا، وَلَـوْلَا أَنْـتَ لَمْ تَطِـبِ[2]

فإذا مضى صلاح الدين إلى الشام يريد أن يوحده مع مصر وأخذ دمشق، قال وحيش الأسدي:

رَأَيْـت جِلَّـقَ ثَغْـرًا لا نَظِـيرَ لَـهُ فجِئْتَهـا عَـامِرًا مِنْهـا الـذي خَرِبَـا
نَادتْـكَ بالـذُّلِ لَمَّـا قَـلَّ ناصِرُهَـا وأزْمَـعَ الخَلْـقُ مِـنْ أوْطَانِهـا هَرَبَـا

(1) ديوان ابن سناء الملك، ص 1.
(2) ديوان ابن سنا الملك، ص 3، 4.

أَحْيِيتَها مِثْلَ مَا أحييْتَ مِصْرَ فقدْ أعدْتَ مِنْ عَدْلِها مَا كَانَ قَدْ ذَهَبَا
هَذا الذي نَصَرَ الإِسْلامَ فاتضَحَتْ سَبِيلُه وأهَانَ الكُفْرَ والصُّلُبَا
أَبَتْ لَهُ الضَّيمَ نفسٌ مُرَّةٌ ويدٌ فَعالةٌ، وفؤادٌ قَطُ مَا وَجَبَا (1)

ونجد صلاح الدين عندما تتأزم به الأمور يرسل الرسائل مستنجدًا بملوك الإسلام شرقًا وغربًا؛ فعند حصار الصليبيين لعكا، وعجز المسلمين عن فك هذا الحصار بسبب انفتاح البحر أمام النجدات الصليبية، والخوف من الهزيمة الماحقة، بعث صلاح الدين إلى خليفة بغداد، وإلى غيره من أمراء المسلمين في الشرق والغرب؛ يستنجدهم، ويحثهم على الوحدة الإسلامية.

وتتمثل هذه الوحدة الإسلامية في شكل أقل بروزًا عندما استنجد الملك الكامل محمد بأخويه الأشرف موسى والمعظم عيسى، عندما استولى الصليبيون على دمياط، واستطاع الإخوة الثلاثة أن يحققوا انتصارًا عظيمًا على الفرنجة، وهنا نجد الشعر يعبر عن تلك الوحدة، وذلك كما نقرأ في قول راجح الحلي:

هَنِيئًا فإنَّ السَّعْدَ رَاحَ مُخَلدَا وَقَدْ أَنْجَزَ الرَّحمنُ بالنَّصْرِ مَوْعِدَا
حَبَانَا إِلهُ الخلقِ فَتْحًا بَدَا لنَا مُبينًا وإِنْعَامًا وعِزًّا مُؤيدَا
ونادَى لسانُ الكونِ في الأرْضِ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ في الخَافِقينَ ومُنْشِدَا
أعُبَّادَ عِيسَى، إنَّ عِيسَى وحِزْبَه ومُوسَى جَميعًا يَنْصُرانِ مُحَمَّدَا(2)

ومهما يكن من شيء فإن الشعور بالوحدة الإسلامية في ذلك العصر كان طاغيًا على كل شيء في المجتمعات الإسلامية القريبة من الحرب والبعيدة عنها أيضًا.

(1) الروضتين، ج 1، ص 237.
(2) الذيل على الروضتين، أبو شامة المقدسي، ص 129، 130، ط أولى سنة 1947م.

وقد سمى بعض الدارسين المحدثين هذا الشعور بالقومية الإسلامية، ولكن هذه التسمية في ظننا غير صحيحة؛ لأن الإسلام يتنافى مع القومية، فلا قومية في الإسلام، وإنما التسمية الصحيحة هي الوحدة الإسلامية، فالقومية تقوم على اعتبارات غير دينية، وأما الوحدة فإنها تقوم على الدين وغيره.

ويؤدي بنا شعر الحرب إلى الالتفات إلى ما غلب على بعض الشعر الأيوبي من **استنجاد وطلب للمعونة،** فعندما تتأزم الأمور بأحد القواد أو بجيش إسلامي، فإنه يستنجد ويطلب المعونة، وذلك مثلما تأزمت الأمور بأهل دمياط حين شدد الصليبيون الحصار عليهم وطال المدى بهم، ولم تستطع الدولة أن تبعث لهم ما يخفف عنهم ما هم فيه من أزمة وضيق، فقد كتب أحد الأمراء المحاصرين في المدينة - وهو جمال الدين الكنائي - قصيدة ألصقها بسهم ورماه نحو جند الملك العادل؛ ليصور له ما يعانيه أهل البلد من بؤس وشقاء، ويطلب إليه نجدتهم، ومحاربة الصليبيين لفك الحصار عنهم، يقول هذا الشاعر الأمير:

يَا أيُّها المَلِكُ الذي مَا إنْ يُرَى ... بَيْنَ المُلُوكِ شَبِيهُهُ وعَدِيلُه
أَشْكُو إليكَ عَدُوَّ سُوءٍ أحْدَقَتْ ... بجميعِه فُرْسَانُه وخُيولُه
فالبرُّ قَدُ مُنِعتْ إلَيهِ طَرِيقُهُ ... والبَحْرُ عزَّ لِنَصْرِهِ أُسْطُولُه
والثَّغْرُ نَاظِرُه إليكَ مُحْدِقٌ ... مَا إنْ يَملُّ مِنَ الدُّموعِ هُمُولُه
ولَئِنْ قَعَدْتَ عَنِ القيامِ بنَصْرِهِ ... جَفَّتْ نَضَارتُه وبَانَ ذُبُولُه
حَقِّقْ رَجَاءً فيكَ يَا مَنْ لَمْ يَخِبْ ... أبدًا لِرَاجِي جُودِه تَأْمِيلُه[1]

وقد صور هذا النوع من الشعر ما نزل بالبلاد من ضيم وذل وإرغام للإسلام، وترويع للآمنين، واعتداء على الأطفال والنساء، وحذر من ضياع الإسلام، وامتلأ بالدعوة إلى الجهاد، ومدح المستنجد بهم؛ ترغيبًا لهم في المشاركة في القتال.

---

(1) السلوك، للمقريزي، ج1، ص 199، ط دار الكتب المصرية، سنة 1936م.

وإلى جانب انتشار الشعر الذي يستنجد بزملاء المصير الواحد في مقابل الخطر الصليبي، نجد الأدب الأيوبي يمتلئ بالحث على القتال، سواء أكان ذلك الأدب نثرًا أم شعرًا، فلقد ملأ الخطباء المدن، وانتشر رجال الوعظ والصوفية ورجال الدين بين المقاتلين؛ ينشئون الخطب والمواعظ التي تحث على القتال وتغري به، وتضع صورة معتمة لمن يرضى بالذل الصليبي، أو تضع أمامه صورة كئيبة لأهل البلاد التي استولى عليها الصليبيون.

وانتشر أيضًا التأليف الحربي، ونعني بذلك الكتب الخاصة بالجهاد ورأي الإسلام فيه، والكتب المتصلة بأدوات الحرب، وكذلك استخدمت الرسائل الحاثة على القتال والاستبسال.

وقد كان للشعر نصيبه الكبير في هذا الغرض، وخاصة الحث على تطهير المدن التي احتلها الصليبيون، وعلى رأسها القدس؛ إذ ما أكثر القصائد التي نظمها الشعراء في حث ممدوحيهم على تطهير هذه المدن، وكان الشعراء ينتهزون فرصة انتصار أحد السلاطين في إحدى المعارك؛ ليشيدوا بالانتصار، ثم يطلبوا إلى السلطان إتمامه بتطهير الأرض المسلوبة، يقول العماد في تهنئة صلاح الدين حين فتح حمص:

نُهوضًا إِلَى القُدْسِ يَشْفِي الغَلِيْلَ ... بفَتْحِ الفُتُوحِ وَمَاذَا عَسِيرُ

سَلِ اللهَ تسهيلَ صَعْبِ الخُطوبِ ... فهوَ على كلِّ شيءٍ قديرُ(1)

ويقول العماد أيضًا مخاطبًا صلاح الدين:

بفُتُوحِ عَصْرِكَ يَفْخَرُ الإِسْلامُ ... وبِنُورِ نَصْرِكَ تُشْرِقُ الأَيَّامُ

فتمَلَّ فتحَكَ واقْصِدِ الْفَتْحَ الَّذي ... بحُصُولِه لفتُوحِكَ الإِتْمَامُ(2)

---

(1) الروضتين، ج 1، ص 247، وانظر: ديوان عماد الدين الأصفهاني، تحقيق: ناظم رشيد، ص 19، ط جامعة الموصل، العراق، 1983.

(2) الروضتين، ج 1، ص 247؛ وانظر: ديوان عماد الدين الأصفهاني، ص 377.

ويمكن القول إن الشاعر العربي لجأ إلى تهوين الصعاب أمام من يمدحهم من الأمراء والقواد، كما شدَّ من عزائمهم وواسى أهليهم.

لقد فعل الشاعر العربي ذلك لينتهي إلى الحث على الاستبسال في القتال، والحض على النزال حتى الفوز والانتصار، يقول ابن النبيه للملك الأشرف موسى في وقعة دمياط.

للــذَّةِ العَــيْشِ والأفْــرَاحِ أَوْقَــاتُ	فانْــشُرْ لِــواءً لَــهُ بالنَّــصْرِ عَــادَاتُ
أيْـنَ المفـرُّ لِـسِرْبِ الـرُّوم مِـنْ أَسَـدٍ	ضَـارٍ لَـهُ مِـنْ رِمَـاحِ الخـطِّ غَابَـاتُ
دِميـاطُ طُـورٌ ونـارُ الحَـرْبِ مُوقَـدَةٌ	وأنْـتَ مُوسَـى وهَـذَا اليـومُ مِيقَـاتُ
أَلْـقِ العَـصَا تَتلَقَّـفْ كُـلَّ مَـا صَـنَعُوا	ولاَ تَخَـفْ مَـا حِبـالُ القَـوْمِ حَيـاتُ
طَـأْهُمْ بجَيْـشِكَ لا تَحفـلْ بكثْـرَتِهمْ	فــإنَّهم لبُغَـــاثِ الطَّـــيرِ أَقْـــواتُ
أنْـتَ الـصَّباحُ فَمَـزِّقْ لَيْـلَ كُفْـرِهم	واصْــبِرْ ورَابِــطْ فللأعــمالِ نِيَّــاتُ
زَلْــزِلْ بغَارَتِــكَ الــشَّعْواءِ دَارَهُــمُ	فــشِيمةُ النُّجــبِ الغُــرِّ الإغَــاراتُ
مَـا كُـلُّ مَـنْ طَلَـبَ العَلْيَـاءَ أَدْرَكَهَـا	وَوَافَــتْ سَــعْيَه فِيهَــا سَــعَادَاتُ(1)

ثم نجد من شعر الحرب ما **سجل المعارك**، ونعني بذلك ما صور وقائع القتال، وأكثر المعارك التي لقيت حظًّا كبيرًا من الشعر هي معارك حطين والقدس ودمياط، والحقيقة أن المعارك التي اشترك فيها المسلمون والصليبيون كانت شديدة الضراوة، بعيدة العنف، قاسية رهيبة.

وعلى الرغم من أن الشعر الأيوبي -أو معظمه- كان من وحي الحروب الصليبية، فإن الشعر الذي وصف القتال قليل؛ فنحن نجد في كل معركة من المعارك مجموعة من

(1) ديوان ابن النبيه، ص 66 – 67؛ وانظر: تحقيق د. محمد عمر الأسعد، ص 354.

القصائد تنظم وتنشد بين يدي صلاح الدين أو خلفائه، وقد غلب المدح عليها، وهو مدح تقليدي.

وإذا التقطنا الأبيات التي تعرضت للقتال، وجدناها قليلة قلة تثير الدهشة، ووجدناها إلى جانب هذه القلة لا تعطينا لوحة فنية متكاملة للقتال، تماثل اللوحات التي نجدها عند الشعراء الماضيين؛ بل ربما وجدنا عند الشعراء غير البارزين ما يصور القتال أكثر مما نجده عند البارزين، ولعل أحد الأسباب لذلك هو وقوع القتال - في أغلبه - خارج مصر، وعدم اشتراك فعلي من الشعراء في تلك المعارك.

ويمكن أن نمثل لهذا اللون من الشعر بالأبيات التي قالها الشريف النسابة الجواني محمد بن أسعد في صلاح الدين:

أتُـرَى مَنامًـا مـا بعَيْنِـي أُبْـصِرُ ... القُـدسُ يُفْـتَحُ والفِرنْجَـةُ تُكْـسَرُ
ومَلِـيكُهمْ في القَيْـدِ مَـصْفودٌ ولَمْ ... يُـرَ قَبـلَ ذَاكَ لَهُـمْ مَلِيـكٌ يُـؤْسَرُ
قَـدْ جَـاءَ نَـصْرُ اللَّهِ والفَـتْحُ الـذي ... وُعِـدَ الرَّسُـولُ فَسَبِّحُوا واسْـتَغْفِرُوا
فُـتِحَ الـشآمُ وطُهِّـرَ القُـدسُ الـذي ... هُـوَ في القِيامَـةِ للأَنَـامِ المَحْـشَرُ
يـا يوسـفُ الـصِّديقُ أَنْـتَ لفَتْحِهَـا ... فَارُوقُهَـا عُمَـرُ الإِمَـامُ الأَطْهَـرُ
مَلِـكٌ غَـدَا الإِسْـلامُ مِـنْ عُجْـبٍ بِـهِ ... يَخْتَـالُ والـدُّنْيَا بِـه تَتَبخْـتَرُ
غَارَاتُـه جُمَـعٌ فَـإِنْ خُطِبـتْ لَـه ... فِيهَـا الـسُّيوفُ فَكُـلُّ هَـامٍ مِنْـبَرُ
إذْ لاَ تَـرَى إلا طُـلًى بِـسَنَابِكٍ ... تحـذِي نِعَـالًا أو دِمَـاءً تَهْـدِرُ (1)

ويقول ابن الساعاتي لصلاح الدين في فتح طبرية:

جَلَـتْ عَزمَاتُـك الفَـتْحَ المُبِينَـا ... فَقَـدْ قَـرَّتْ عُيـونُ المُؤْمِنينَـا
لبِيْـضِكَ في جَمَـاجِمِهِمْ غِنَـاءٌ ... لَذِيـذٌ علَّـمَ الطَّـيرَ الحَنِينَـا

---

(1) الروضتين، ج 2، ص 105.

تَمِيــــلُ إِلَى المُثَقَّفَــــةِ العَـــوالِي　　فَهــلْ أَمْــسَتْ رِمَاحًــا أمْ غُــصُونَا
يَكَــادُ النَّقْــعُ يُــذْهِلُهَا فلَــوْلَا　　بــرُوقُ القَاضِــبَاتِ لَمَــا هُــدِينَا
فكَــمْ حَــازَتْ قُــدُودُ قَنَــاكَ مِنْهَــا　　قُــدودًا كَالقَنَــا لَوْنًــا وَلِينَــا
لَقَــدْ جَــاءَتْهُمُ الأَحْــدَاثُ جَمْعًــا　　كَــأَنَّ صُرُوفَهــا كانَــتْ كَمِينَــا[1]

ونمثل له أيضًا بأبيات للشهاب فتيان الشاغوري، يصف فيها معركة حطين:

جَاشَتْ جيوشُ الشِّرْكِ يَومَ لَقِيتَهُمْ　　يَتَــذامَرُونَ عَــلَى مُتُــونِ الــضُّمَّرِ
أَوْرَدْتَ أطْـرَافَ الرِّمـاحِ صُـدَورَهُم　　فَــوَلَغْنَ في عَلَــقِ النَّجِيــعِ الأَحْمَــرِ
فهُنَــاكَ لَمْ يُــرَ غَــيْرُ نَجْــمٍ مُقْبِــلٍ　　في إِثْــرِ عِفْرِيــتٍ رجــيمٍ مُــدْبِرِ
فَمَــن الــذي مِــنْ جَيْــشِهْم لَمْ يُخْــتَرَمْ　　وَمَــن الــذي مِــنْ جَمْعِهــمْ لَم يُــؤْسَرِ
مَـضَتِ المُلُـوكُ وَلَمْ تَنَـلْ عُـشْرَ الَّـذِي　　أوتِيتَــه مِــنْ مَــنْجَحٍ أَوْ مَفْخَــرِ[2]

ولكن من الملاحظ أن الشعراء الذين قصروا في رسم الحرب قد أفاضوا في الإشادة بالمقاتلين؛ لأن ذلك يدخل في باب المدح، ولقد خلعوا على من مدحوهم أوصافًا متعددة، أكثرها أوصاف تقليدية متصلة بالحرب وغير الحرب.

ولعل الإضافة التي تذكر لهم، هي الأوصاف المتصلة بحب الناس لهؤلاء الأبطال، ولهفتهم عليهم، وإحاطة القلوب بهم؛ لأنهم حملة الدين والعقيدة، وتلك هي القضية المهمة التي لجأ إليها الشاعر الأيوبي.

(1) الروضتين، ج 2، ص 84.
(2) الروضتين، ج 2، ص 84.

وقضية الدين هي أكثر القضايا التي ألح عليها الشاعر الأيوبي، فلقد عد الصليبيين أعداء الدين، يريدون القضاء على الإسلام، وعد الأيوبيين المدافعين عنه، وعد كل انتصار من انتصاراتهم حماية للإسلام وإحياء له.

ومن هنا أحاط الشعراء بصلاح الدين خاصة، ونظم كثير منهم قصائده وأرسلها إليه دون أن يلتقي به، وقد اجتمع للشعراء الاسم وهو يوسف، واللقب وهو صلاح الدين، والشعار الذي قامت عليه الحروب الصليبية وهو الدين.

اجتمعت هذه الأمور لتجعل الشعراء يعنون – عناية كبيرة – بالموقف الديني في هذه الحروب، فأتوا بالأفكار القائمة على مبادئ دينية، وبالصور التي تقوم على التلاعب اللفظي، وخاصة أن كثيرًا من الأمراء الأيوبيين تلقبوا بألقاب دينية، ونستطيع أن نمثل لهذه الأمور بقول ابن النحاس المصري مخاطبًا الناصر يوسف صلاح الدين:

يَـا مَالِـكَ المِـصْرِ والـشَّامينِ والـيَمَنِ ... ويَـا مُعِيـدَ حيـاةِ الفَـرْضِ والـسُّنَنِ

ونَــاصِرَ الحَــقِّ إذْ عَــزَّت خَوَاذِلُــه ... ومُنقِـذَ الـدِّينِ والـدُّنْيَا مِـنَ الفِـتَنِ

يـا يُوسُـفَ الحُـسْنِ والإِحْـسَانِ لا ... نُجُـومُ سَـعْدِكَ، والتوفِيـقُ في قَـرَنِ[1]

ونستطيع أن نمثل أيضًا بقول سعادة الضرير:

غَـضبْتَ لِـدينٍ أَنْـتَ حَقًّـا صَـلاَحُه ... فأرْضَـيْتَ – لمَّـا أَنْ غَـضِبْتَ – محَمَّـدَا

فَيـا يُوسُـف الخَـيرِ الـذي في يَمِينِـه ... مِـنَ الخَـيْرِ مَـا قَـدْ غَـارَ فِينَـا وأَنْجَـدَا[2]

ويقول ابن الساعاتي في أحد الفتوح مهنئًا صلاح الدين "يوم طبرية":

قَــضَيْتَ فَرْيــضَةَ الإِسْــلامِ مِنْهَــا ... وَصَــــدَّقْتَ الأَمَــــانِي والظُّنونَــــا

تهــزُّ معــاطِفَ القُــدْسِ ابْتِهَاجًــا ... وتُــرْضِي عَنْــكَ مَكَّــةَ والحجُونَــا

(1) خريدة القصر، ج 2، ص 122.

(2) الروضتين، ج 2، ص 12.

فكُنْــتَ كَيوســفَ الــصِّديقِ حَقًّــا لَــهُ هَــوَتِ الكَواكِــبُ سَــاجِدينَا(1)

وكان القتال منتهيًا بإحدى النتيجتين: إما الانتصار وإما الهزيمة، فإذا كان الانتصار كانت التهنئة المعبرة عن الفرح الذي يستولي على الشاعر وعلى العالم الإسلامي كله، وكانت المقارنة بين المعركة التي انتصر فيها ذلك القائد المسلم وبين معارك الإسلام الأولى.

ولقد كان أكبر الانتصارات التي احتفل بها الشعراء انتصار صلاح الدين في معركة القدس؛ وذلك لما للقدس من مكانة وعظمة وتقديس، هذه المكانة التي جعلت الشعراء يشاركون في الفرح والبهجة، وقد دعا ذلك الأمر الأدباء إلى تسمية القصائد التي قيلت في هذه المناسبة "بالقدسيات"، ومن الشعراء من نظم أكثر من قدسية.

ونستطيع أن نمثل لهذا اللون من الشعر المعبر عن فرحة الانتصار بقول البهاء زهير، مخاطبًا الملك الكامل بعد انتصاره في دمياط:

بِكَ اهْتَزَّ عِطْفُ الدِّينِ في حُلَلِ النَّصْرِ وَرُدَّتْ عَــلَى أعْقَابِهَــا مِلَّــةُ الكُفْــرِ
فَقَــدْ أَصْــبَحَتْ والحَمْــدُ للهِ نِعْمَــةً يُقَــصِّر عَنْهــا قــدرةُ الحَمْــدِ والــشُّكْرِ
يَقِــلُّ بِهَــا بَــذْلُ النُّفُــوسِ بِــشَارَةً ويَــصْغُرُ فِيهَــا كُــلُّ شيءٍ مِــن النَّــذْرِ
أيَادِيــه بِــيضٌ في الــوَرَى مُوسَــوِيَّة ولكِنَّهــا تَــسْعَى عَــلَى قَــدَمِ الخِــضْرِ
فَيَــا مَلِكًــا سَــامَى المَلائِــكَ رِفْعَــةً فَفِــي المــلأ الأَعْــلَى لــه أطْيَــبُ الــذِّكْرِ
ومَا فَرِحَتْ مِصْرُ بِذَا الفَتْحِ وَحْدَهَا لَقَــدْ فَرِحَــتْ بغــدادُ أكثــرَ مِــنْ مِــصْرِ
فَمَــــنْ مُبْلِــــغٌ هَــــذَا الهَنَــــاءَ لمَكَّــــةٍ ويثــرِبَ تُنْهِيــهِ إِلَى صَــاحِبِ القَــبْرِ

(1) الروضتين، ج 2، ص 85.
وانظر قول راجح الحلي في مدح الملك الكامل: الذيل على الروضتين، ص 129.

فَقُــــلْ لِرَسُــــولِ اللَّهِ إنَّ سَــــمَيَّهُ حَمَى بَيْضَةَ الإِسْلامِ مِنْ نُوَبِ الدَّهْر
هُـو الكَامِـلُ المَـوْلَى الـذي إِنْ ذكرتُـه فَيـا طَـرَبَ الـدُّنيا ويَـا فَـرَح الـدَّهْرِ(1)

ومن الشعر المعبر عن فرحة الانتصار قصيدة "قدسية" مشهورة للجويني في فتح القدس، يخاطب فيها صلاح الدين قائلًا:

جُنْـدُ الــسَّمَاءِ لِهَـذَا المَلْـكِ أعْـوانُ مَـنْ شَـكَّ فيـهِ فَهَـذَا الفَـتْحُ بُرْهَـانُ
مَتَـى رَأَى النَّـاسُ مَـا تَحْكِيـه في زمـنٍ وَقَـدْ مَـضَتْ قبـلُ أَزْمَـانٌ وأزْمَـانُ
هَـذِي الفُتُـوحُ فتـوحُ الأَنْبِيَـاءِ وَمَـا لَهَـا سِـوى الـشُّكْرِ بالأفْعَـال أثْـمانُ
أَضْحَتْ مُلوكُ الفرنجِ الصِّيدُ في يَدِه صَـيْدًا ومَـا ضَـعُفُوا يَومًـا ومَـا هَـانُوا
تِسْعُونَ عَامًا بلادُ اللهِ تَصْرخُ والإِسْـ لامُ أَنْــــصَارُه صُــــمٌّ وعُمْيَــــانُ
فـالآنَ لبَّـى صـلاحُ الـدينِ دَعْـوتَهُمْ بــأَمْرِ مَــنْ هُــو للمِعْــوانِ مِعْــوَانُ
للنـاصِرِ ادُّخِـرَتْ هَـذي الفُتـوحُ وَمَـا سَـمَتْ لهَـا هِـمَمُ الأَمْـلاكِ مُـذْ كَـانُوا
فــاللَّهُ يُبْقِيــكَ للإِسْــلامِ تَحْرُسُــه مِـنْ أَنْ يُـضَامَ ويُلْفَـى وَهْـو حَـيْرَانُ(2)

وإذا كانت الهزيمة كان الحزن، ولكن الشاعر كانت له مهمة أخرى غير الحزن؛ لقد كانت له مهمتان: مهمة أمام السلطان، ومهمة أمام الشعب، أما مهمته قِبَل السلطان فهي التسرية والتسلية عن ذلك السلطان المنكسر، وتهدئة خاطره، والثناء على المستبلسين في القتال، وأما مهمته قبل الشعب فهي الاعتذار عن الهزيمة، وبيان أنها كانت لظروف خارجية، وأن السطان قد أحسن البلاء في القتال، وإعلان أن الحروب سجال بين هزيمة وانتصار، والدعوة إلى لم الشمل ورأب الصدع واستئناف القتال، والإعداد لمعركة قادمة

(1) ديوان البهاء زهير، ص 99، 100، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد طاهر الجبلاوي، ط2، دار المعارف، سنة 1982.
(2) الروضتين، ج 2، ص 104، 105.

يتحقق فيها الانتصار، وذلك كما نقرأ في قول ابن الخيمي حين سقطت دمياط في يد الأعداء:

وَلَقَدْ بَكَيْتُ لِثَغْرِ دِمْيَاط دَمًا وَوَجدتُ وَجْدَ الفَاقِدِ المَحْزُونِ

أرضِ العبادةِ والزَّهادةِ والتُّقَى وتِلاوةِ القُرآنِ والتَّأْذِينِ

وَبِئَتْ وأَوْبأَهَا العَدوُّ فَأَهْلُهَا شُهَداءُ بينَ الطَّعْنِ والطَّاعُونِ(1)

وثمة ألوان أخرى من شعر الحرب غير ما ذكرنا، مثل التهديد والوعيد ورثاء الأبطال، ووصف أدوات القتال، والحماسة والفخر، ووصف الفرنجة وما أصابهم من خوف وذعر.

***

(1) بغية الوعاة، السيوطي، ج 1، ص 184، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط العصرية ببيروت، وانظر: ديوان ابن الخيمي.